

## الحمام الشعبي بتلمسان

الهادي بو وشمة<sup>(2,1)</sup>

### تقديم

سوسيولوجية العلاقة بين الإنسان والحمام، يمكن تفكير على ثلاثة أوجه مختلفة، من جهة الحمام هو فضاء لعلاقة الإنسان بجسمه وبمكان وزمن الحمام، و من ناحية أخرى، يحقق هذا الفضاء حاجيات الجسم من الماء، أما الوجه الثالث، فإنه يحقق علاقة انسانية و جسدية من خلال فرص لقاء و حميمية الإنسان بالإنسان أو الجسم بالجسم الآخر.

هذه العلاقات تتغذى و تتأسس على اعتبار الحمام كفضاء حاضن و عاكس إلى اليوم للجزء المجسد و المتجلّي من حياة و تقاليد و أعراف و قيم الكثير من المجتمعات المتوسطية، و منها بالخصوص المجتمع التلمساني.

هذا يجعل منه (الحمام) التراث و التقليد العريقين، اللذين عرفهما هذا المجتمع، فهو عالم وشبكة من الأنساق و الممارسات و التسلالات، التي تتغذى تارياً و سوسيولوجياً من فاعليه، إنه أكبر من أن يعد فضاء للاختسال و طقساً للعبور من النجاسة إلى الطهارة ومن المدنس إلى المحرم، فهو العالم الآخر للذكريات و التخيّلات، و هو الفضاء الذي تتشبّك فيه العلاقات الاجتماعية، كما أنه كان ولا يزال مركز المدينة في مقابل ثنائية المسجد و السوق كفضائيين ملازمين.

و منه فإن الحمام نواة للهوية الثقافية و منظومة من القيم، التي تشكل حاوية مهمة من معيش الإنسان التلمساني، كما أنه الفضاء، الذي يتقاطع فيه المقدس

<sup>(1)</sup> Département de sociologie, université Djilali Liabes, 22000, Sidi bel Abbes, Algérie.

<sup>(2)</sup> Centre de recherche en anthropologie sociale et culturelle, 31000, Oran, Algérie.

بالدينوي، و الاجتماعي بالثقافي، و الاقتصادي بالديني، فهو اللحظة المُثلية للتعرية الجسد و الجماعة الاجتماعية في نفس الوقت، وإعادة النظر و مراجعة مقوله الجسد انطلاقاً مما يمنح هذا الفضاء من علاقة و تواصل معه.

في نفس السياق، كان الحمام ولا يزال بأبعاده و وظائفه الاجتماعية و الثقافية و الاقتصادية ذو دور ريادي في منظومة وأنساق المجتمع التلمساني و قيمه و ذاكرته، فهو فضاء للنماذج والتواصل و المراقبة و المراقبة، كما أنه المجال السانح لإعادة إنتاج تعليمية الجنسي عبر جدلية التعرى والتستر و الحياة و الوقاحة، ومن ثمة كان الحمام ضرورة سوسيولوجية وعتبة للعالم الخارجي و مسلك لفهم المجتمع التلمساني وتعريمة طقوسياته الخاصة وقيمته و موروثه الخضاري، ذلك ما دفعنا إلى محاولة البحث والمقاربة الأميركيّة وفقاً لرؤيه اثنوغرافية وظيفية للحمامات الشعبية بتلمسان.

## I. وظائف الحمام في المجتمع التلمساني

اضطلع الحمام التلمساني بعديد الوظائف، التي جعلت منه معلماً مهماً عاكساً لهوية و ذاكرة هذا المجتمع، حاولنا تفصيلها حسب الأهمية على الشكل التالي:

### 1. وظيفة صحية

عَدَ الحمام منذ نشأته الأولى، خصوصاً منه الذي أقيم حول الينابيع المعدنية (حمامات علاجية) من أساسيات الصحة، إذ كان ولا يزال يلجأ إليه الناس و يتوجهون إليه كلما أحسوا بالتعب، أو استعصى عليهم المرض، ففي حرارة الحمام تنشيط لعملية التعرق الضرورية للصحة الجيدة. وفي تلمسان الكثير من أنواع الحمامات المشهورة بعلاج الروماتيزم والأمراض الجلدية و حصى الكلى، من ذلك حمام بوغرارة، شيقير، سيدى العبدلي، و بعض العيون الطبيعية كتحمامين بأوزيدان... إضافة إلى بعض الحمامات القريبة من المدينة كحمام بوحنيفية بمعسكر، و بوحجر بعين تموشنت إلى غير ذلك من الحمامات المعدنية بالجزائر عموماً، غير أن أهمية الحمام بعمومه تبقى صحية و تتفاوت أهميتها بين الحمام العمومي العادي و الحمام المعدني، كما يعُدّ بعد النظافة كأهم مقوم صحي تنشيطي لصحة الإنسان، لذلك راعى الأطباء القدامى ببلاد الأندلس و المغرب ذلك من خلال:

## 1.1 المقاصد الطبية للاستحمام

قدّم العديد من الأطباء والعلماء المسلمين منذ القدم - و الذين يبقى تراثهم الفكري متداولاً إلى اليوم بتلمسان - وصفات و شروط و ضوابط في ولوح الحمّامات، من ذلك عبد الرحمن بن نصر الشيزري<sup>1</sup> وابن خلصون وابن الخطيب<sup>2</sup>، الذين خلصوا إلى القول على لسان الباحث المغربي بنحمادة سعيد: "ألا يدخل المرأة الحمّام في يوم شديد الحر، فإنه يُبَيِّسُ البدن، و لا في يوم شديد البرد و الريح، فإنه لا يَأْمُنُ من النزلات عند الخروج منه، و لا يدخله عند امتلاء المعدة، فإنه يولد السُّدُودُ و الحمّى العفونية، و لا على جوع فإنه يُبَيِّسُ البدن و يُشَعِّلُ حرارته و يُولَدُ حُمَّى يوم، و لا بأثر جماع، [...]، و لا سهر و لا تعب [...]، و ليكن في دخول الحمّام على خلاء المعدة، و وفرة القوة، و نشاط النفس، و اعتدال الفصل، و اعتدال النهار و ضحوته"<sup>3</sup>، كما حَدَّدَ ابن سينا أحسن الحمّامات صحية في كتابه *القانون* بقوله "خير الحمّام ما قدم بناوہ و اتسع فضاوہ و عذب ماؤہ"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> لأكثر تفاصيل أنظر، بن نصر، الشيزري عبد الرحمن (1946)، كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، نشر السيد الباز العربي، القاهرة.

<sup>2</sup> هذه المصادر يشير إلى بعضها بنحمادة، سعيد (2007)، في عمله، الماء والإنسان في الأندايس، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت، ط1، ص. 231، ذكر منها: ابن خلصون، أبو عبد الله محمد بن يوسف، (ت. 50هـ/1414م)، *قلائد العقابان في صحة الأبدان*، مخ، خ، ق، فاس، رقم 1564.

ابن الخطيب، لسان الدين عبد الله بن عبد الله، (ت. 776هـ/1375م)، *الوصول لحفظ الصحة في الفصول*، مخ، خ، ح، الرباط، رقم .77.

<sup>3</sup> بنحمادة، سعيد، *الرجع نفسه* ، ص. 231.

<sup>4</sup> المناوي، عبد الرؤوف (1987)، كتاب *النَّزَهَةُ الزَّهِيَّةُ* في أحكام الحمّام الشرعية و الطبية ، تحقيق و تقديم الدكتور عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية للطباعة و النشر و التوزيع، (د.م.ط)، ط1، ص. 60.

## ١. ٢ كيفية الاستحمام

بالمقابل المقاصد العلاجية و الطبية للاستحمام، وصف الأطباء العرب و المسلمين، و منهم أهل تلمسان الكيفيات المثالية والأنسب لعملية الاستحمام من خلال تحديدهم و تنظيمهم له و ذلك بالانتقال التدريجي بين بيوت الحمام الثلاث و تجنب الإطالة به ، فوضعوا تنظيمًا محكمًا و رشيدًا غير مهلك وجب لكل داخل الحمام الالتزام به تجنبًا للهلك والمرض، فكان هذا جزء من قواعد عادات و تقاليد المجتمع الإسلامي – ومنه التلمساني بالخصوص- في الاستحمام و لوج الحمامات، و التي ترسّخت في أعرافه، فكانت تعبيرا عن حجم المعرفة المائية التي تعارف عليها الأطباء الأسلاف، و الذين أعطوا من خلالها بناء نظريا للممارسة الواقعية لتدبير البدن<sup>٥</sup> .

## ٢. وظيفة جسدية و سيكولوجية

إن علاقة الإنسان بجسده قديمة قدم البشرية غير أن تطورات الإنسانية و تشعب معارفها و عاداتها و أعرافها و دياناتها و مقدساتها جعل أساس العلاقة في مقام أول ترتبط به كمفهوم ثقافي اجتماعي يختلف من بيئة إلى أخرى و من عصر لآخر. فالجسد هو الصورة المحددة و المعبرة في مقام أول لهوية الإنسان، كما أنه المكان الصغير الذي يربط الإنسان بالمكان الكبير للكون، فالإنسان يعبر عن علاقته مع العالم عبر جسده، و بمقابل فإن الحمام عُدّ الفضاء الأهم في علاقة الإنسان بجسده من خلال تفاعله معه ، و ما نتاج عنها لحالات من الشعور.

و منه فإذا اعتبرنا الوجود الإنساني في الزمن التاريخي هو وجود جسدي في الأساس، فإنّ الحمام اعتبر مكان لتفاعلاته هذا الجسد مع روحه و عقله، و مع الجسد الاجتماعي المحيط به. و إنّ شخصً به مرتدي الحمام في المقام الأول، إذ إن العلاقات التي توفرها عمليات الاستحمام، من خلال ممارسات الجسد و طقوسه أثناء ذلك، تجعل منه اجتماعيا أكثر و في حاجة لآخر، خصوصا ما تعلق بتنظيفه الجسد و ما يتطلبه من استرخاء و راحة، هذه الأخيرة، التي تعد شعورا نفسيا و جسديا يجنيه المستحم بعد عملية الاستحمام، التي عرف من خلالها الإنسان منافع متعددة لعلاج مشاكله الصحية و المعنوية و الجسدية، بفضل

<sup>5</sup> بمحامدة سعيد، مرجع سابق، ص. 232-233.

عنصري الحرارة والماء. فاستسلم لذلك و صنع لنفسه في علاقته بالحمام طقوسا غالبا ما كانت تظهر من خلال صور التردد المنتظم عليه و استسلامه لمن يُدِّلُّكُ له جسده و ينظفه من قشوره الميتة، إلى أن يترك جسمه نظيفاً ملائماً يشعره بالراحة من متعة الاغتسال<sup>6</sup> التي جعلت من الحمام فضاءً يجمع بين ملء الفراغ و متعة الاستحمام<sup>7</sup>، أو كما يقول الحميري: “[...] يربط الأبدان، و ينميها و يزيد في حرّها الغريزي و يفرح النفس و يذهب الحزن”<sup>8</sup>، و من جهة أخرى عدّ فضاءً للبحث عن الجمال و الزينة، ينعكس البحث عن ذلك من طرف المرأة التلمسانية، في استعمالها العديد المستلزمات أثناء عملية الاستحمام و بعدها، و التي لا تزال تحافظ على الجزء المهم منها إلى اليوم.

في الأخير، الحمام بقدر ما هو فضاءً “للتّطهير الفيزيولوجي”， فإنه أيضاً يحيل إلى نوع من التطهير السيكولوجي بما يمنحه من إمكانية للاسترخاء والتفرغ للجسد والعناية به<sup>9</sup> كما تقول الباحثة المغربية خلود السباعي، فهو مبني لخدمة و تحقيق متعة الجسد و مكان للالتذاذ، و في نفس الوقت تحقيق تناغم نفسي للذات، و من ثمة يوفر الحمام فرصتين الأولى تخص الاغتسال الجسدي أما الثانية فتوفر الاغتسال العقلي<sup>10</sup>.

### 3. وظيفة اجتماعية واستراتيجية

من الناحية الاجتماعية عدّ الحمام عند أهل تلمسان ميداناً لإنتاج الاجتماعي، كما يعتبر واحد من أهم فضاءات تشبّثك العلاقات و توطيد التضامنات الاجتماعية بين ساكنة هذه المدينة و زوارها، فكان ملتقى اجتماعي بامتياز، و مصدراً للنشاط و السرور و الفرجة من جهة، و مسرحاً للأفراح العائلية من جهة

<sup>6</sup> كريم، فضيلة (2007)، *الحمامات موجز تاريخ الحمامات* ، ترجمة يوسف حضري، دار النشر دحلب، الجزائر، ص 18-19.

<sup>7</sup> المرجع نفسه، ص 15.

<sup>8</sup> بنحدادة، سعيد، مرجع سابق، ص. 231.

<sup>9</sup> السباعي، خلود (2006)، *الجسد الأنثوي و هوية الجندر*، دار القلم للطباعة و النشر و التوزيع، الرباط، ط1، ص 110.

<sup>10</sup> وارهام، أحمد بلحاج آية (1997)، *شعرية الحمامات* ، دار وليلي للطباعة و النشر، مراكش، ط1، ص. 110-43.

أخرى<sup>11</sup>. برغم بعض المنافسة، التي يلقاها من مؤسسات أخرى، غير أن دوره يبقى مستمراً، ومعه تبقى طقوس و عادات المجتمع التلمساني مرتبطة في تمثيلاتها و مخيالها الاجتماعي بالحمام و منافعه، الذي يجعل منه إلى اليوم فضاء للقاء و التعارف و نسج علاقات جديدة و حتى التجسس، و تبادل الأخبار سواء بين الرجال أو النساء فيما بينهن. نظراً للزمن الذي تقضيه النسوة في الحمام -حتى عَدَ الحمام فضاء نسوي خالص<sup>12</sup>- و اعتبر الذهاب إليه من الاستراتيجيات الأنثوية في صناعة جسد يغري و يحافظ على البيت الزوجية، أو في كسب زوج و التأسيس لمشروع زواج.

من ناحية أخرى يمكن قراءة تأويلية لعلاقة المرأة بالحمام من زاوية اعتبار و لوجها الطويل له كأحد قواعد اللعب الأنثوية ضد التسلط الذكوري في شغل الفضاء العام و الانفتاح على المجال الخارجي<sup>13</sup> عن فضاء المنزل خصوصاً في المجتمعات الأبوية-الريفية، و يشكل بذلك الخروج إلى الحمام عند الكثير منهن فضاء موفراً لعنصر التحرر من السيطرة الذكورية للأب و الأخ، حيث يستغل زمن الحمام لقضاء المرأة لمشاكل أخرى كأن تستغل الفرصة للذهاب إلى السوق أو زيارة صديقة...الخ، و من ثمة "الحمام عند النساء هو أكثر من مجرد مكان للتظاهر، بل هو خاصة المخرج، و كذلك المجال للتسلية و المراوحة، إنه بمثابة المشهد المسرحي".<sup>14</sup>

من جهة أخرى فإن الحمام شكل أيضاً استراتيجية ذكورية في صناعة الجسد، و في اكتساب معارف جنسانية...الخ، كما أنه لا يزال أحد الفضاءات الأكثر تأثير في التحولات البنوية و القيمية لمجتمعاتنا، مثلما هو بدوره أصبح مجال للتحول في ذاته نتيجة للظروف و التغيرات المحيطة به.

لكن ما يمكن استنتاجه من الميدان اليوم هو أن دور الحمام كفاعل اجتماعي عرف بعض التراجع أما اتساع و تعدد المؤسسات، التي أصبحت تزاحم أدواره (الحمام)، و لم يعد اليوم الملجأ المهم في الحياة الاجتماعية كما كان عليه في

<sup>11</sup> كريم، فضيلة، مرجع سابق، ص. 09.

<sup>12</sup> السباعي خلود، البرجع نفسه، ص. 109.

<sup>13</sup> المرجع نفسه، ص. 109.

<sup>14</sup> بوعزيزي، محسن (2010)، *السيميولوجيا الاجتماعية*، إصدارات مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، ط 1 ، ص. 97.

القديم. رغم ذلك فإن عودته الآني وحضورهاليوم أصبح أكثر انسجاما مع العصر الحديث، من خلال توسيع حجم مرافقه و لواحقه مع تعديمهما بمنشآت عصرية كالمرشات والجاكوزي و الصونا...الخ، كما لم يعد المسجد و السوق الفضاءات الوحيدة، التي تستهوي وجوده، بل أصبحت مرافق جديدة اليوم كالملاعب مثلا تتتوفر بدورها على الحمّامات.

في سياق ذي صلة، كان و لا يزال الحمّام بتلمسان فضاءا للمساواة و امحاء الطبقية و انعدام للفوارق الاجتماعية و التمايزات، و لولا الملابس و الحلي، التي يمكن أن تميز زبونا عن آخر و تجلب الانتباه لانتماهه الظبيقي، لبقي الحمّام الفضاء، الذي تمارس فيها المساواة بامتياز.

رغم ذلك يبقى الحمّام فضاء لتجلي مظاهر المساواة الاجتماعية بفعل تخلص المستحبّمين من الألبسة، التي يتفضل بها الناس، لذا كان هذا الفضاء يحيل دائما و رمزا بالأخص على الآخرة و يوم الحشر<sup>15</sup>.

#### 4. وظيفة ثقافية و حضارية

مثل الحمّام الفضاء المهم في التاريخ الثقافي و العمراني بهذا المجتمع المحلي، إذ أنّ محتواه الطقسي و عاداته، عادة ما كانت المرأة الثقافية العاكسة لتراثه و موروثه الحضاري، فالكثير من عاداته و تقاليده و مستلزماته في الاستحمام لا تزال مستمرة اليوم، و تعكس جزءاً منها من هويته و تجذره في التاريخ و الحضارة، كما يعكس امتدادات المنطقة تارخيا و ثقافيا بين الجنس البربري و المسيحي و العربي و التركي و الأندلسي و اليهودي، مع كل ما خلقه هذا الغنى الثقافي من تميّز للحضارة الزيانية و أهل تلمسان عموما بتقاليد حاضرة اليوم و مؤرخة لعلاقة هؤلاء بالحمام ماضيا و حاضرا، و من ذلك طقوس الزواج مثلا.

إذ كان للحمام، و ما يزال، حضور قوي في هذه العادات و التقاليد بالمجتمع التلمساني، فكان دوره على سبيل المثال، حاضرا بقوة في عادات الزيانيين في الزواج، خصوصا عندما كان الأمر يتعلق بالبحث عن خطيبة، ففيه كانت تتم عملية معاينة العروس و مراقبة حركاتها و جسدها و هي عارية تماما للتأكد من خلو جسمها من العيوب. يقول محمد كرد علي في ذلك: "[...] و متى أصبح الأمر تقربياً واقعاً، يذهبن (الخاطبات) إلى الحمّام معاً و يربين جسمها عارية

<sup>15</sup> بنحمادة سعيد، مرجع سابق، ص. 130-131.

و شعرها و يشمن آذانها (كذا) و فمها و تحت إبطها و رائحة عرقها و ثيابها، و ينقلن ذلك إلى الخطاب و عميد الأسرة مع وصف شكلها و جمال وجهها و طولها و غير ذلك<sup>16</sup>، و بالمقابل كانت الفتيات تحاولن لفت الأنظار بإظهار رشاقتهن و جمالهن و أنوثتهن.

في سياق ذلك، و بقدر ما كان الحمام فضاء تزويجيا، فإنه أيضا كان و لا يزال فضاء للاحتفال و الفرجة، فأثناء الزفاف مثلا، كان أهل تلمسان و لا يزالون يحتفلون بدخول العروس الحمام "يوم الحناء" كما تسمى محليا مع جمع غفير من صديقاتها و قريباتها، و الأمر نفسه بالنسبة للعربي، الذي يمثل الحمام له "طقس عبور" سواء في اختيار الزوجة أو لليلة الدخول على عروسه. الأمر نفسه من الاحتفال والاستحمام كان يصاحب ذهاب المرأة النساء بعد مرور أربعين يوما عن الولادة إلى الحمام، أين يحتفل بها أيضا، و تبقى الكثير من هذه الطقوس تحافظ على نمطيتها و يعاد انتاجها إلى اليوم، كما أنّ الحمام كان دوما فضاء للسحر و الشعر و الترث.<sup>17</sup>

تمدينيا، فقد كان الحمام بتلمسان الرومانية و الزيانية و المراطبية و الموحدية و الزيانية ذا دور هام ساهم في تطوير نسيج و تحضير المدينة و تمدين مجالها و باقي أمصارها، كما يبيّن من جهة أخرى تفاضل تلمسان و تطور عمرانها المائي، لأنها (أي الحمامات) كما يستأثر عن ابن خلدون "إنما توجد في الأمسار المستحضرة المستبحة العمران، لما يدعو إليه الترف و الغنى من التنعم، و لذلك لا تكون في المدن المتوسطة"<sup>18</sup>، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان الحمام فضاء للقاء الحضر بالبدو كما يقول عمر كارلي Omar Carlier<sup>19</sup> و من خلالهم أوساط اجتماعية ذات قيم متعددة.

<sup>16</sup> كرد محمد علي، (1972)، خطط الشام، ج. 6، دار العلم للملاتين، بيروت، ط2، ص. 277.

<sup>17</sup> Carlier, O. (2000), « Les Enjeux Sociaux du Corps, le Hammam Maghrébin (19-20 siècle) lieu pérenne, menacé ou créé, Annales, Histoire, Sciences sociales, 55 année, N°6, Nov- Déc 2000, Paris, éd. l'Ecole des Hautes Etudes en Sciences Sociales, p. 1312.

<sup>18</sup> ابن خلدون، عبد الرحمن (2004)، مقدمة العالمة ابن خلدون المسماة: ديوان البدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي شأن الأكبر، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، ط1، ص. 394.

<sup>19</sup> Carlier, O., *op.cit.*, p. 1307.

و لعل ذاك ما تساهم به حمامات تلمساناليوم خصوصا منها المعدنية، إذ رغم التريفيف، الذي أصاب المدينة نتيجة الحراك الاجتماعي و هجرات بعد الاستقلال، فإنها ساهمت إلى حدود كبيرة في تمددين مجال كبير من تلمسان الحالية، و توسيع شبكة حماماتها لتشمل العديد من القرى بعد 1980م خصوصا، كما جلبت فوائد حماماتها الصحية عددا كبيرا من السياح للتداوي والنزهة، فتحولت معها حمامات كحمام بوغرارة و الشيقرو سيدي العبدلي إلى فضاءات استشفائية و سياحية. ساهم تردد المرضى عليها في تمدinها - بمفهوم المدينة الحالية بتناقضاتها السوسيو-ديمغرافية و العمرانية، إذ أن الإقامة فيها تتطلب إنشاء مرافق عمرانية تستجيب لطول فترات العلاج.

## 5. وظيفة دينية

كان الحمام في المجتمع التلمساني المسلم موازيا دوما في دور المسجد "و الغرفة الخلفية منه"<sup>20</sup>، فمتطلبات أداء الصلوات و الفرائض الدينية و ما يتوجبه من نظافة و غسل أديا إلى تحول في دوره خصوصا بعد ظهور الإسلام، مما جعله مؤسسة لا غنى لل المسلم عنها في طهارته<sup>21</sup>، و هوما يعكس ارتباط الإنسان المشرقي و المغربي بالحمام عن بقية الأمم، إذ عرفه منذ القدم و جعله معبدا له في الاغتسال و التطهير، و من ثمة كان موقعه غالبا بالقرب من المساجد<sup>22</sup> و مدخلاته.

الإسلام كدين ربط كثيرا من تكاليف العبادة بالماء، وجعل من الطهارة شرطاً لأدائها، و غالبا ما كانت عملية الاستحمام سواء في الحمام الفردي المنزلي أو الحمام العمومي مقصدا لنظافة الإنسان المسلم على الرغم من الخلافات الفقهية حول دوره، و ضوابطه...الخ، و اعتباره بؤرة للاختلاط و مكانا هابطا للعربي الفاضح بين زبائنه.

<sup>20</sup> بودجية، عبد الوهاب (2000)، *الجنسانية والإسلام*، ترجمة مقلد محمد علي، سراس للنشر، تونس، ص. 215.

<sup>21</sup> موساوي، سليمة (1999)، "حمامات مدينة تلمسان: نموذج حمام الصباغين"، من مجلة الثقافة، إصدار وزارة الثقافة والاتصال، الجزائر، السنة الرابعة والعشرون- العدد 119، ص. 195.

<sup>22</sup> وارهان، أحمد بلحاج آية. مرجع سابق، ص. 37.

في سياق مرتبط، مثلت العديد من الحمامات بتلمسان الزيانية و بعدها مصدرا للدخل أو ما يصطلح عليه بالوقف دينيا، إذ أنشأت الحمامات بجواري المساجد والمدارس و الزوايا و كانت وقفاً لعديد المؤسسات سواء منها الدينية أو الثقافية أو الجهادية أو الخيرية في التسيير و العمل. و من الأمثلة على ذلك حمام الطبول بتلمسان الزيانية، الذي ورد اسمه في وثيقة الأوقاف، التي أصدرها أبو حمو موسى الثاني و الخاصة بالمدرسة اليعقوبية، وكذلك حمام العالية و الحمام القديم، اللذين حبسهما السلطان أبو الحسن بن أبي سعيد وقفاً لمدرسة و جامع بناهما<sup>23</sup>، وكانت أغلب الحمامات بتلمسان موقوفة على المساجد و المدارس و الزوايا<sup>24</sup>.

## 6. وظيفة اقتصادية و خدماتية

شكلت الحمامات بتلمسان وسيلة من الوسائل المادية الأساسية، التي اعتمدها صانعوا الحمامات منذ أول صناعة لها، كما ساهمت في الحياة بعمومها سواء منها الدينية أو السياسية و الاجتماعية، من خلال مداخلتها الاقتصادية، التي سخرت في تاريخ الدول بتلمسان كوقف، إضافة إلى العديد من المشكلات و الصفقات وقعت و أبرمت بداخلها، و من ثمة كان و لا يزال الحمام فضاءً للعديد من الأنشطة التجارية<sup>25</sup> فالكثير من حمامات تلمسان، يضم فضاءها البراني، مكاناً للعديد من المنتجات من قبيل المشروبات الغازية والماء، و مختلف مستلزمات الاستحمام من صابون و العطور و الكاسات و المحكاك، عوضت هذه المواد وظيفياً الدلوك والسدر و هو ورق شجر النبق و نبات الليف، الذي كان يستخدم قدیماً في عملية الغسل و حك الجسم<sup>26</sup>، إضافة إلى الخطمي أو الغاسول، الذي كان يستعمل إلى زمن قريب...الخ، كما أن و لوج الحمام لم يكن أبداً حكراً على

<sup>23</sup> Brosselard, Ch. (1985), « Les inscriptions arabes de Tlemcen », 3<sup>ème</sup> année, n° 03, in *Revue Africaine*, années 1858-1859, Office des publications universitaires, Alger, Edition n° 1928, p. 410-412.

<sup>24</sup> فيلالي، عبد العزيز (2002)، تلمسان في العهد الزياني دراسة سياسية عمرانية، اجتماعية، ثقافية، ج 1، موقف للنشر والتوزيع، الجزائر، ص. 297.

<sup>25</sup> بهيسي، عبد المجيد (2008)، "الحمامات العمومية والديمغرافية التاريخية: أية علاقة؟، الحمامات الشامية أنموذجًا"، من الكتاب الجماعي دراسات تاريخية في العمارة والسكن، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، رقم 94، جامعة محمد الأول، وجدة، ص. 82.

<sup>26</sup> ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي (1988)، لسان العرب، ج 1-12، دار الجيل، بيروت، دار لسان العرب، ط 1، مادة "سدر".

أبناء المنطقة التي يوجد بها، بل كان يرتاده أيضاً الغرباء وعابرو السبيل، وهي عادات لا تزال قائمةاليوم، على الرغم من أنّ الحمام بتلمسان تحول إلى ملكية عائلية وخاصة ولم يعد وقفا.

مع بداية القرن الثامن عشر تحولت الحمامات بالغرب والجزائر وتلمسان إلى فنادق تؤدي خدماتها ليلاً، خصوصاً مع اشتداد الحركة التجارية، باعتبار أنّ الحمام كان دوماً ملزماً للمسجد والسوق<sup>27</sup>، ولا يزال إلى اليوم فعله بتلمسان. كما وفرت هذه المنشأة فرص شغل متعددة ومتناوبة تراوحت بين الخدمة والتجارة، فقد شكلت فضاءً لتقديم خدمات متعددة ومتكلمة لولاهما لما أمكن ضمان استمرار نشاط هذا المرفق العمومي، فهناك الحمامي، والناطور أو الوقاف، والمزيّن أو البلان و حتى الحجام أحياناً<sup>28</sup>، والمدلك (الكياس)، و الوقاد، وأخيراً الزبّال.

\*الحمامي: مهمته إدارة أمور الحمام و تدبيرها. فهو المسؤول الأول (العلم)، الذي يقوم باستقبال الزبائن و استخلاص ريع الاستحمام والسهير على التسيير العام<sup>29</sup>.

\*الناطور أو الوقاف: كان يسهر على حفظ أثواب الناس<sup>30</sup>، و على استبدال المازر النظيفة بالمازر المستعملة، و أدوات الاستحمام الأخرى، كما كان، أحياناً، مكلفاً بنظافة الغرف<sup>31</sup>.

\*المدلك أو الحكّاك و الكياس بلغة أهل تلمسان: كان يدلك بيده أجسام المستحمامين، أما اليوم فإنه يعمل بواسطة ما يسمى بـ"الكاسة".

\*المزيّن أو البلان: كان مكلفاً بالحلاقة خصوصاً، كما أنه ببعض الحمامات كان يوجد حجامون يقومون بوظيفة التطبيب التقليدي (الحجامة). خدمات أخرى تتعلق بتدبير عمل الحمام من الخارج خصوصاً، كانت تحتاج إلى قيميين يشرفون عليها نذكر من هؤلاء:

<sup>27</sup> Carlier, O., *op.cit.*, p. 1311.

<sup>28</sup> Lewis, B., Ménage, V.-L, Pellait, Ch., Schacht, J. (1990), *Encyclopédie de l'Islam*, t. III, nouvelle édition, Paris, maison œuvre et la rose, p. 143.

<sup>29</sup> بيبيني، عبد المجيد، مرجع سابق، ص. 84.

<sup>30</sup> المرجع نفسه، ص. 84.

<sup>31</sup> الشيزري، بن نصر عبد الرحمن، مصدر سابق، ص. 88.

\* الوقاد: و كان مكلفاً بإيقاد النار و تسخين الحمام، و قد أصبح غير موجود حالياً، نظراً لعامل التكنولوجيا و استبدال الحطب و الفحم بالغاز.

\* الزبالي: و مهمته جلب روث الجمال و الحمير و البقر و الحطب و الأخشاب و ما إلى ذلك، إلى الحمام على ظهر الحمير<sup>32</sup>، و كان مكلفاً أيضاً بتطعيم الفرن أو الموقد بالوقود الطبيعي كلما تطلب الأمر ذلك<sup>33</sup>، غير أن ذلك لم يعد اليوم موجوداً نظراً لعوامل التكنولوجيا، حيث بدأت الحمامات تكتفي في تسبيحها وتدميرها على عاملين أو ثلاثة منهم الحمامي (العلم)، الذي يتکفل بقبض ثمن الاستحمام و بيع مختلف الحاجيات، يضاف له الكياس تقابلها الطيابة عند النساء.

## 7. وظيفة سياسية

مثل الحمام في العهد الروماني بتلمسان إلى جانب اعتباره كفضاء للراحة و الترفيه و الاستمتاع، مكاناً للقاء و الاجتماع بين كبار الساسة في قلب القاعة الساخنة لمناقشة المسائل المالية والسياسية<sup>34</sup>. بينما عرف في عهد الدول الإسلامية العديد من "الاغتيالات" كما حبكت به العديد من المؤامرات ودس الدسائس، كما كان ويبقى بؤرة للاستخبارات و وكالة أخبار تستقي أحوال المجتمع المدني و السياسي<sup>35</sup>.

في سياق متصل، يبقى الحمام اليوم إلى جانب بعض أدواره السالفة الذكر، ذي أهمية لا تقل عما سبق، إذ الكثير من الأحزاب و التنظيمات خصوصاً بمجتمع تلمسان تستغل الحمام لنشر أفكارها و إيديولوجياتها، خصوصاً أثناء الحملات الانتخابية بين جميع شرائح المجتمع و بالأخص الفتاة النسوية، التي توظف للدعائية لزوج أو لأحد معارفها. و تحظى ما يعرف بالطيابة بالأهمية نظراً لدورها و علاقاتها المتعددة بزبوناتها.

<sup>32</sup> شاكر، لعيبي (2007)، العمارنة الذكرورية: فن البناء و المعايير الاجتماعية و الأخلاقية في العالم العربي، رياض الرئيس للكتب و النشر، بيروت، ط1، ص. 184.

<sup>33</sup> بهيبي، عبد المجيد، المرجع نفسه، ص. 85.

<sup>34</sup> كريم، فضيلة، مرجع سابق، ص. 15.

<sup>35</sup> وارهان، أحمد بلحاج آية، مرجع سابق، ص. 93-87.

رغم كل ذلك مما اضطلع به الحمام من أدوارا ووظائف، فإن فترة منتصف التسعينات، وبخاصة مع اشتداد الأزمة الأمنية، عرف كسادا رهيبا ميزه عزوف النسوة عنه خصوصا، بسبب الخوف من الأعمال الإرهابية، كما أدخل الحمام وأصبح نافذة سياسية - اجتماعية لممارسة الرقابة على المجتمع وعلى الفضاء العام.

## II. بنية الحمام التلمساني

في هذا الجزء الثاني من البحث سنقف أساسا على الوصف لبنية الحمام التلمساني سواء منها المتعلقة باعتباره كفضاء فيزيقي ورمزي من حيث أقسامه وآليات اشتغاله سواء منها التقليدية أو الحديثة، أو تلك المتعلقة ببنية الزمنية والطقسية، وسننتهي إلى تجليات ذلك على مستوى طقوس الاستحمام خصوصا.

### 1. مورفولوجية الحمام وفضاءاته

الحمام كبنية متجانسة تعكس وظائف الحمام ومارساته المتنوعة و ذلك لطبيعة تنوع الفضاء الذي يحويه، إذ كانت الغرف ترتب وفق نظام خاص، السقيفة في المقدمة يعادل جوها الأسطوري والوظيفي غرفة ارتداء الثياب في الحمامات اليونانية والرومانية القديمة، تليها حجرة الأمانات، حيث يخلع الرواد ملابسهم ويرتدون مآزر الاستحمام، و منه يكون المرور عبر البيت البارد إلى القاعة الوسطى، وهي مركبة واسعة بها ماء فاتر و تستخدم للتقطئة بين البيتين البارد والساخن. أما البيت الأخير فهو أكثر فضاءات الحمام سخونة ما يجعل المرأة يتصرف عرقا، و تقع خارجه غرفة صغيرة للاستعمال الشخصي وللوضوء، و بذلك يحتوي كل من الحمامين الروماني والإسلامي على استعدادات فذة للاحتفال من حمامات البخار وأخرى باردة و ساخنة، إلى جانب برك السباحة و المرشات الباردة والساخنة<sup>36</sup>.

و بالمجمل يمكن الوقوف في الحمام التلمساني الشعبي على ثلاث فضاءات أساسية، الفضاء الأول منها يتعلق بما يمكن أن نسميه بالفضاء البراني (Frigidarium) باعتباره الأقرب للفضاء الخارجي من جهة، و من درجة الحرارة

<sup>36</sup> بودحية، عبد الوهاب (2001)، *الإسلام و الجنس، ترجمة و تعليق العوري، هالة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، ص. 234.*

من جهة أخرى، و يعتبر أساسيا في بنية الحمام، لأن به مجموعة من الممارسات، التي تتعلق بالوجاهة الاجتماعية من خلال تغيير الملابس و التفاخر و المزايدات .

و الفضاء الثاني هو الوسطاني<sup>37</sup> (Tepidarium)، و هو متدرج بالنسبة لحرارته مقارنة مع البراني، و هو تحضير للفضاء، الذي يليه من حيث درجة الحرارة، كما أنه المكان الأنسب لأخذ قسط من الراحة دون الإضرار بالجسم ودون الاحساس بالبرد و السخونة، كما يعد المكان الأنسب لتبادل أطراف الحديث.

أما الفضاء الثالث فيتعلق بالفضاء الجوانى (Caldarium) و هو الأكثر حرارة و المكان الأفضل للتعرق و التمدد و التكياس<sup>38</sup> كما يحلو لأهل تلمسان تسميته، و يتم التدرج بين هذه الفضاءات الثلاثة و لكل فضاء ممارساته الخاصة به .

ينتهي الاستحمام، إلى العودة عبر البيوت الثلاثة إلى غرفة استبدال الثياب بعد لباس مئزر الخروج (فوطة كبيرة تغطي الجسم من السرة إلى الركبتين، وأخرى تستعمل لتنشيف بقية الأعضاء وتغطية الرأس تقاديا عن الاصابة من نزلة برد) حيث يأخذ الزبون قسطا من الراحة على المقادير الوثيرة، التي تتبادر أحيانا و تتعدد، و بعد ذلك يقدم ثمن الاستحمام ومستلزماته ، و الذي يمكن أن يكون مسبقا مع زمن الدخول، و يهم بالغادر إلى بيته.

## 2. آليات اشتغال الحمام التلمساني التقليدي

تتنوع بنيتي اشتغال الحمام و ممارسة طقوس الاستحمام بمجتمع تلمسان على قسمين، الأول متعلق بالأدوات، التي اشتغل ويشتغل بها فضاء الحمام سواء في صورته التقليدية أو الحديثة، أما القسم الثاني فيه فيتعلق بالأدوات الأساسية، التي تدخل في عملية الاستحمام في حد ذاته، و تشكل أحد طقوسه.

### 2.1 أدوات اشتغال الحمام

إن الحمام كثقافة و مؤسسة تقليدية و مركز أساسى في مدينة تلمسان توارثته الأجيال عن بعضها، ما خلف معه مجموعة من الممارسات المرتبطة به في صورته التقليدية، و كان ذلك آلية أساسية أسهمت في اشتغاله بطريقة جعله يستمر

<sup>37</sup> شاكر، لعيبي، مرجع سابق، ص. 173.

<sup>38</sup> التكياس، يعني التدليك و يقوم بهذه الوظيفة "الكياس" بالنسبة للرجال و "الطيابة" بالنسبة للنساء.

تارياً، ويبقى مطلباً اجتماعياً وثقافياً، وذلك لطبيعة سحره الأخاذ، نتيجة تقليديته المستمدّة من طبيعة هندسيّه وسمك جدرانه ومنافذ دخول الهواء إليه وخروجه منه، بحيث جعلته يحتفظ بدرجة حرارة متوازنة داخل فضاءات الثلاث السابقة الذكر، و كان من عناصر جودة الحمام التلمساني اشتغاله إلى أزمنة قريبة على الحطب والمخلفات القابلة للاشتعال وخصوصاً ما يسمى محلياً "الفينتور"<sup>39</sup>، من أجل تسخين الماء وتوزيعه تحت مسارب موزعة بطرق منتظمة تحت أرضية الحمام، حيث يصهر عامل (قيم) يراقب فرن الحطب، وينظم درجة حرارته بشكل تقليدي، ذلك أعطى للحمامات "الذادة وطيبة" كما قال ياقوت الحموي<sup>40</sup>.

في ذات السياق، ورغم انتشار حمامات جديدة عصرية مبنية في اشتغالها على الأدوات الكهربائية السهلة التسيير إلا أن الحمام التقليدي، الذي يعمل بالحطب كان ولا يزال أكثر اهتماماً من طرف الفاعلين، حيث يَحْنُ العديد من المبحوثين لتلك الحمامات، التي كانت منتشرة بمحيط تلمسان القديمة، و التي كانت أرضيتها موضوعة من حجر طبيعي يستمدّ حرارته من مسارب المياه، التي تجري تحته، عكس الحمامات المعاصرة اليوم بتلمسان، التي يغلب على أرضيتها بلاطات رخامية والزليج ولا تجري تحتها مياه ساخنة، وإن كان الأمر لا ينطبق على جميع الحمامات، حيث لاحظنا في الميدان محافظة بعض الخواص في بناء حماماتهم على النمط القديم و المتعلق أساساً بوضع أرضيات من الحجر الطبيعي المرصوص بالبيت الساخن.

## 2.2 الأدوات التقليدية الأساسية في فعل الاستحمام

فعل الاستحمام في السياق التلمساني يقتضي حضور مجموعة من المستلزمات، التي يراها أهل تلمسان أساسية في عملية الاستحمام، و ذلك يوحي بأهمية الحمام في الحياة المعيشية للأفراد، حيث وجد بالمدينة دور لصناعة الصابون المعطر، و العطور و الاهتمام بالغازول و السواك و الحناء، و ذلك كله مرتبط بثقافة الاستحمام و طقوس التطهير، التي تقتضيها التعاليم الإسلامية من جهة

<sup>39</sup> "الفينتور"، من مخلفات الزيتون المعصور و القابل للاشتعال بسرعة لصغر حجمة و لبقايا زيت الزيتون به ويعطي رائحة جميلة.

<sup>40</sup> الحموي، ياقوت بن عبد الله، (ببط)، معجم البلدان، ج 1، دار الفكر، بيروت، ط 1، ص. 267.

و تمثالت الجسد من طرف الفاعلين لقيم النظافة و الصحة العمومية من جهة أخرى. و يصح قول عبد الوهاب بوحديبة أن الحمام هو" مقدمة و خاتمة لأعمال البدن أو بتعبير آخر وضع نهاية لأعمال البدن".<sup>41</sup>

إن الدخول إلى الحمام – كما سلف الذكر- يقتضي وجوب ارتداء الفوطة للدخول و فوطة للخروج، الأولى تتعلق بستر العورة في عملية الاستحمام لكن سرعان ما يستغنى عنها داخل الحمام و الثانية من أجل تجفيف الشعر و البدن من مياه الاستحمام، و تعتبر هذه الفوطات جزء من زينة المرأة حيث تستعمل الفوطات المغربية والجذابة و المطرزة بخيط لامع، كما تُحَصَّ العروس بفوطة خاصة، حتى يتم التعرف عليها داخل الحمام و السؤال عنها و عن عائلتها، ليتم دمجها ضمن المجتمع و ربط الصلة بها، كما تدخل التلمسانيات إلى وقت قريب باللقباب الخشبي، الذي كان منتشرًا إلى زمن قريب بالحمام التلمساني، و الذي يحمي المستحم من التزحلق داخل الحمام بسبب الماء المنظفة، و بعد الدخول تجد مجموعة من الدلاء الخشبية و الطاسات للاغتسال، و تستعمل "الكياسة" للفرك و إزالة الأوساخ، و تصنع في الغالب من مواد محلية و نباتات، كما تستعمل المرأة الغسول لتحفظه من التقصف و تكسبه قوة و حيوية و تلينه، و غسله مرة ثانية بورق الزيتون و غيرها، كما تختلف المواد المستعملة حسب الفئات الاجتماعية.

مقارنة، يختلف الأمر اليوم، حيث العديد من المواد المصنعة، لم تعد تحمل معالمها الطبيعية، التي كانت عليها قديما، حيث مواد كثيرة مصنعة اليوم، يحملها الرجل و المرأة التلمسانية إلى الحمام، و رغم ذلك حافظت بعضها على عتاقتها ونمطيتها من قبيل البشكير و الكاسة و الطفل و السطل...الخ، أما من النواحي الفيزيقية، ففوض ما يسمى بالجاييات<sup>42</sup>، الدلاء الخشبية و البلاستيكية القديمة التي كانت تستعمل، كما أصبحت تتوفّر البيوتات الساخنة بالحمامات على حنفيات مزدوجة الماء (البارد والساخن) لكل فرد، و بالتالي لم يعد مرتدى الحمام مطالبين بمشقة جلب الماء من الحوض الاسمنتى.

<sup>41</sup> ، بوحديبة، عبد الوهاب، مرجع سابق، ص. 238.

<sup>42</sup> الجايية، هي آنية إسمنتية و رخامية كبيرة، تعرّض وظيفيا الدلاء القديمة التي كان يستعملها مرتدى الحمام في الاغتسال.

### ٣. زمن الحمام وطقس الاستحمام

زمن الاستحمام هو زمن الترفيه و المتعة و التواصل مع العالم الخارجي، خصوصا عند النساء، حيث تقضي النساء معظم يومها داخله، مقسمتا له بحسب تقسيمات الفضاء، حيث يأخذ فضاء البراني وقتا للتحضير للحمام و نزع الملابس أو ارتداءها و الدردشات الجانبيّة و اللقاءات الحميمية لقاء و فراق. حيث يعتبر زمن الحمام الفرصة النموذجية لعقد اللقاءات الاجتماعية.

كما يأخذ زمن المخصص للفضاء الجواني الحصة الأكبر، حيث يتقطع فيه الاستحمام بمتعة البخار وحرارة اللقاء، و التدليك و الغسل و التجميل كطقس الحناء و الغاسول و معالجة القدمين و إزالة الشعر من مختلف أجزاء الجسم و تبييض الأسنان و الاعتناء بالبشرة.

أما الزمن الخاص بالفضاء الوسطاني فهو في غاية الأهمية من الناحية الأنثروبولوجية، حيث يتقطع فيه المقدس مع الأرضي، إنه فضاء أخذ قسط من الراحة زمنيا و مكانيا، و تفتح فيه المواضيع المحرمة و المغلقة التي تتلعلق بالجنس و الجنس و العلاقات الحميمية و الزواج و الطلاق و مراقبة الأجساد.

إن زمن الحمام هو الآخر مرتبط بالذكورة و الأنوثة حيث تقسم الوقت بما يتناسب ونشاط كل جنس، يقول عمر كارلي Omar Carlier: "أن ولوج الحمام كان دوما مضبوطا بزمن مقسم حسب الجنس الأنثوي و الذكوري، فعادة ما يكون زمن الرجال في الصباح، أو قبل صلاة الفجر، أو في المساء، أو قبل العمل، أما النساء فتلجن الحمام قبل منتصف النهار (قبل وقت الغذاء) و عادة ما يكون استحمامهن بصحبة أطفالهن"<sup>24</sup>، دون سن البلوغ، و لكن بعد هذا السن يصبح الطفل غير مقبولا استحمامه وسط النساء، و هنا تبادر الطيابة أو الحمامية إلى لفت انتباه الأم بقولها: "لقد كبر ابنك فلا تصطحبه معك"<sup>43</sup>.

إن بعد الدين و تحذير الفقهاء من الاختلاط و مراقبة المجتمع لبعضه، ترك مجموعة تقاليد محلية ضابطة للحمام التلمساني، حيث يعرف أن النهار للنساء و المساء للرجال و الوقت الفاصل بينهما يستعمل مجموعة من الرموز

<sup>24</sup> Carlier, O, *op.cit.*, p. 1306.

<sup>43</sup> بودحية، عبد الوهاب، مرجع سابق، ص. 218.

المحلية مثل تعليق الفوطة عند مدخل الحمام لعرفة أن وقت النساء لم ينتهي، أو تكون الطيابة هي المُبلغة لانتهاء وقت الحمام بالنسبة للنساء و بدايته للرجال. إن زمن الحمام هو زمن تطويق الفرد للجسد و المجتمع للجنس و القدسي و تفريغ لشحنته، و مكان لتقاطع اللذات و الحاجيات و فضاء استراتيجي و ضروري للمجتمع المحلي لتدبير شؤونه الخاصة.

#### 4. تجليات طقس الاستحمام

الحمام تقليد في المجتمع التلمساني يُعاد إعادة إنتاج منظومة قيمه و معاييره الاجتماعية باستمرار، خصوصا من خلال التكريس الزمني لثقافة الاستحمام، المحددة عند الإنسان التلمساني وفقا لرزنانة قد تكون يومية في أحيان أو أسبوعية في أغلب الوقت وحسب الضرورة، هذا جعل من الحمام ظاهرة اجتماعية لافنة، يمكن من خلالها فهم سلوكيات و ممارسات ساكنة تلمسان و علاقاتهم بالحمام و الاستحمام و طقوسه، فقد دأب هؤلاء على تنظيم رزنامة حياتهم الجنسية و الاجتماعية مثل الزواج، الوضع و الخطبة و غيرها مع ما يتنااسب و زمن الحمام و فضاءه .

و الاستحمام كظاهرة سوسيولوجية و أنثروبولوجية يمكن تقسيمها على ثلاث متواليات أساسية :

#### 4.1 ما قبل الاستحمام

و يتعلق الأمر بتقديم الجسد و الواجهة الاجتماعية و الخطاب عبر الألبسة و الأقمشة و طرق التزين و كمية المجوهرات و نوعيتها، التي تأتي بها النسوة إلى الحمام على خلاف عن الرجل من أجل التباهي و توضع عند صاحبة الحمام، و التي تقوم بدورها بتمرير الخطاب المراد توصيله سواء قصدا أو بغير قصد و تصبح بعض النسوة محل نقاش و جدل داخل الحمام و خارجه، و بعد أن يستوفى المستحم/ المستحمة كل شروط تقديم الذات، ينتقل أو تنتقل إلى الفضاءات الأخرى .

#### 4.2 لحظة الاستحمام

يدخل المستحم الفضاء الجواني الكثيف بالبخار فيختار و يُحضر المكان، الذي يناسبه و المبني على الجوار داخل الحمام و استراتيجية و وضعية

المراقبة، فيختار الرجل الكياس، الذي يقوم بتدليكه و هو الأمر نفسه مع المرأة، و بداية يُغسل مكان الاستحمام و يحرص الجنسيين على ذلك بنفسهما، لوجود اعتقاد شعبي راسخ يخص المرأة، التي لا تغسل مكان جلوسها أنها معرضة للحمل عبر التقاطها لمني رجل خصوصاً أن حمام الرجال هو نفسه حمام النساء، حيث يتم التداول عليه على حسب توقيت كل فئة. و هذا ما سماه بودحية بـ "جنون الحمام"<sup>44</sup>، و بعد ذلك يتم ملأ الجابيات بالماء بعدما يتم تعديل درجة حرارته بحسب كل فرد و الغرض من استحمامه، ليكون الماء ساخناً أو فاتراً أو بارداً.

و بعد عملية التعرق تقوم الطيابة أو الكياس بحث جسم المستحم/ المستحمة، و هنا تختلف الممارسات الرجالية عن الممارسات النسائية لعملية الاستحمام و خصوصاً حركات التكياس، و التي تقوم على القوة البدنية للمكيس و المتكييس عكس المرأة، التي يتم فقط تدليكها بلطف، و بعده تقوم بغسل شعرها و ترطيبه و تليينه وربما تغيير لونه، و بعدها تحضر نفسها للخروج من الحمام سواء بطلب المازر من الطيابة للخروج منه، أو قد تأتي بها هي سلفاً.

#### 4.3 ما بعد الاستحمام

بعد خروج المستحم سواء من الرجل أو المرأة من الحمام يقومون بتجفيف أجسادهم من الماء و الاسترخاء و تناول بعض الفواكه و خصوصاً الحمضيات في فصل الشتاء، و كذا بعض المشروبات الباردة، بعدها ينخرطون في سوق الحمام الصغير، الذي تباع فيه بعض الألبسة و أدوات التزيين. تتبع هذه المرحلة الأخيرة بعملية التجميل و التزيين، و التي تأخذ وقتاً خصوصاً عند الجنس الأنثوي المعنى بها أكثر، و في خضم ذلك تبدأ المراقبة، و كما يقول عبد الوهاب بودحية "الحمام هو المكان الذي يرق فيه حس الملاحظة و خصوصاً مراقبة جسد المرأة"<sup>45</sup> كما هو فضاء للحوار و النقاش و الحميمية، التي تجعل من الحمام "الفضاء الأكثر اجتماعية و ألفة و مخالطة"<sup>46</sup>، التي قد تمتد لزمن قد يقصر

<sup>44</sup> بودحية، عبد الوهاب، مرجع سابق، ص. 244.

<sup>45</sup> بودحية، عبد الوهاب، مرجع سابق، ص. 222.

<sup>46</sup> Traki, Z. (1984), «Symbolique corporelle et espaces musulmans», in *Horizon maghrébin*, Tunis, p. 65.

أو يطول كما هو الحال عند النساء، اللاتي تعتبرن الحمام عالمهن الخاص، في مقابل تعدد فضاءات عند الرجال، و تنتهي هذه المرحلة بالعودة إلى الأسرة و فضاء البيت.

### III. الحمام التلمساني : معمار حضاري و فضاء للمشاكل الاجتماعية

ما سنحاول مقارنته ضمن هذا الجزء الثالث من البحث، هو ثلاثة نقط تصب كلها في بعدين كبيرين، يتعلق الأول منه بالجانب الحضاري للحمام، في مقابل ما خلفه تحول المجتمع و الهجرات إليه و ما أدى معه من تربيع للمدينة، أما في البعد الثاني فسنقارب معمار الحمام من حيث المشاكل الاجتماعية، التي أصبحت تطرح مع سياقات العصرنة، التي عرفها، في الجزء الثاني منه سنتوقف بالتحليل للمسرحة الاجتماعية، التي تجري بين جدرانه، و التي تجعل من الحمام الفضاء- المنتدى، الذي يوفر سبل التحاور و التبادل الاجتماعي و الحميمية.

#### 1. الحمام فضاء للتحضر أو للتربيف

منذ تأسيس تلمسان أو بوماريا الرومانية عرفت المدينة بناء عدد من الحمامات، حيث عرف سكانها الأوائل هذا الفضاء التمديني الجديد بشكل طور علاقتهم بالماء و العمران، من خلال ترسخ ثقافة استحمامية- مائية و عمرانية جديدة على المجتمع البربرى الذي قطن بالمنطقة، و بعد إسلامها صاحبت ذلك بالكثير من القيم التحضرية من قبيل التضامنات و الاجتماعية الإنسانية، التي عرفتها حياة هذا المجتمع المحلي، و التي أضيفت إلى جانب الأدوار الأخرى للحمام. و كان في التعاقب الحضاري على المدينة و أهلها سواء أثناء حكم الموحدين أو الزيانين، و حتى الأتراك أثر بارز لدور الحمام التحضيري، و قد خص في زمن لاحق خلال الاستعمار الفرنسي النسيج المديني عن الريفي، بحيث كان يشكل هوية الحضري عن الريفي، غير أن الزمن اللاحق من الاستقلال، فإن النسيج المديني بتلمسان عرف حراكا و هجرات ريفية لمناطق مختلفة بشكل أثر سلبا و إيجابا في أدوار الحمام من قيم و عادات مصاحبة لحياة هؤلاء، و الذين أعادوا إنتاجها في فضاء المدينة و من خلالها الحمام، بشكل لم يعد معه هذا

الأخير امتيازاً وتميزاً مدينياً، بل شمل معماره جميع أرياف تلمسان ودخل حياة أفرادها مثلما دخلوه هم أيضاً.

## 2. الحمام و مشاكله العصرية

إن الانفتاح الذي عرفه المجتمع التلمساني الحديث عبر توريد قيمي و سلوكي و معرفي من الإنسان بالمنطقة و من خلاله معمار الحمام، إضافة إلى المشاكل الكلاسيكية من قبيل العري، فإن مشاكل التجسس و التصوير بالآلة التصوير و الكاميرا و حتى بالهاتف النقال، أصبحت موضة سلبية ولجت بعض حمامات المدينة. فكان من مخلفات هذه العصرنة التكنولوجية اليوم الكثير من المشاكل، التي مسّت أدوار الحمام، برغم لما لدورها من تنمية و تطوير كمي و نوعي في تسهيل و عمل الحمامات.

## 3. الحمام كفضاء لمسرحية اجتماعية

عادةً ما يرتبط الحوار و النقاش الداخلي في الحمام بين المستحبّمين أو المستحبّمات بشكل أو باخر بالحياة الاجتماعية بمختلف مشاكلها و أبعادها جعل من "الحمام منتدى اجتماعي"، و عادةً ما يتميّز حديث الرجال عن النساء، فالحوار النسوّي عادةً ما يأخذ وقتاً أطول منه عند الرجال، و ذلك نظير الزمن، الذي تفضّله النساء في الحمام عكس الرجال، الذين يتوفّرون بدورهم على فضاءات تتيح لهم ذلك مثل "المقهى"، فيأخذ تبادل الحوار، الأخبار و عنوانين و محطّات عديدة طوال فترة الاستحمام. فقد تتعلّق بالجسد نظراً لحضوره الرئيسي و رهاناته في الاستحمام، فيكون محور ذلك النقاش و من أهم موضوعاته، خصوصاً ما تعلّق منه بالبحث عن معايير الجمال و الزيينة و التجميل باعتبار ذلك مطلب الجنسين. كما أن مشاكل البيوت و الأقارب بدورها لها حضور في الحديث والحوار، و تتنسّع دائرة هذا الحوار و كثرة الأخبار كلما اتسّع حجم المستحبّمين و تعارفهم. فيأخذ تبادل الأخبار فضاء يتسع بشكل قد يتناول الحي أو المدينة أو المناطق المجاورة لها، و حتى البلد و من ثمة العالم، كما يكون الحزب الفلاني، الطبيب الفلاني أو الولي والرابط الفلاني أو حتى المشعوذ الفلاني من مضمون الحوار بين مختلف الجنسين، يقول عمر كارلي Carlier

Omar في هذا الصدد: "الحمام ميدان و فضاء خصب للسحر..."<sup>47</sup> ، و الحمام في الأخير هو فضاء للاجتماعية الذكورية و الأنثوية، التي تتشكل معالها بالتعرف و الحوار والتحادث المتبادل.

## خلاصة

لقد ارتبط تاريخ تلمسان و مجتمعها بالحمام، حتى أصبح معيشا أساسيا و رمزا لهويته. فقد زخرت هذه المدينة منذ القدم بأحسن الحمامات و أميزها ببلاد المغرب، فكان ذلك عنصر رامز لتعزيز المجتمع التلمساني، و من ثمة ساهم الحمام بوصفه فضاء تنظيفي و اجتماعي و ثقافي و خدماتي في ترسير ذاكرة و هوية المنطقة، بشكل مكّن من تواصل وإعادة إنتاج هذا التراث و قيمه ضمن طقوس و ممارسات ساكنة تلمسان عبر أجيالهم المختلفة، و طبع مخيالهم السوسيو ثقافي انطلاقا من التاريخ لهم عبر مؤسسة الحمام.

إذا كان ذلك يمس الجانب الثقافي خصوصا، فإن دور الحمام اجتماعيا تعدى ذلك إلى صناعة اجتماعية الإنسان التلمساني كما وطد تضامناته سواه في فترات رخائه و هنائه، أو حتى في فتراته العصيبة. في المقابل كان دوره الديني ذي أهمية كبيرة أيضا فقد ربط المخيال الشعبي المحلي دوما بين الحمام و الدين من خلال عنصري النظافة و الطهارة، و من ثمة شطري الإنسان الدنيوي و القدسي، و ما يتضمنه الحمام من رمزية تحيل إلى النظافة و الإيمان و الجنة على عكس مع الوسخ، الذي ربطه بالشيطان و جهنم. و منه شكل الحمام دوما طقسا ضروريا للعبور من النجاسة و الدنيوي إلى الطهارة و الدين و فرائضه و شعائره.

عموما يبقى الحمام ظاهرة تحيل إلى كل ما هو سوسيولوجي و أنثروبولوجي، فهو جزء مهم من ممارسات مجتمع تلمسان اليومية و طريقته في العيش، كما يطبع جزءاً مهما من ذاكرة و ثقافة هذا المجتمع و تمثاليه، فهو الفضاء الأبرز في مورفولوجية المدينة إلى جانب المسجد و السوق، اللذين يعتبران مركز التقاء الرجال بينما يظل الحمام إلى جانب المقبرة الفضاء النموذجي للقاء و تبادل الخبرات و التواصل عند النساء.

<sup>47</sup> Carlier, O, *op.cit.*, p. 1312.

و إلى جانب اعتباره عتبة للمرور من الدنس إلى الطهارة، و من الأرضي إلى المقدس، فإن الحمام يوفر سبل الانتقال من الواقع إلى التخييلي، عبر رسم معلم محددة ل الهوية الشعوب و ثقافتها، كما يعتبر مؤسسة مساهمة في التنشئة و تفريخ قيم المجتمع و معاييره الاجتماعية، عبر التبادل المادي و الرمزي و اللقاء، و تمتين أواصر العلاقات و الحميمية الاجتماعية عبر الصداقة و الخطبة و الزواج. و من ثمة كان و يبقى الحمام بتلمسان الموروث الثقافي و الصحي و الطهوري، الذي وفر دوما سبل العلاقة الإنسانية و الجسدية، كما كان دوما عالما للترفيه و الفرجة، و مصدرا للالتذاذ و تطوير الذات و استخدام مختلف المواد التقليدية و التجميلية، لصناعة جسد، يتقن قواعد لعب المعاشرة الزوجية و استراتيجياتها و جالب للاهتمام، و سامح للعلاقة مع الآخر و مع الله و عبادته خصوصا.

### ببليوغرافيا

ابن خلدون، عبد الرحمن (2004)، مقدمة العالمة ابن خلدون المسئ: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من نوبي الشأن الأكبر، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، ط. 1.

ابن منظور محمد بن مكرم الأفريقي (1988)، لسان العرب، ج 1، ج 12، دار الجيل، بيروت، دار لسان العرب، ط. 1.

الشيخ الإمام عبد الرؤوف المناوي (1987)، كتاب النزهة الزهرية في أحكام الحمام الشرعية و الطبية، تحقيق و تقديم الدكتور عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية للطباعة و النشر و التوزيع، (د.م.ط)، ط. 1.

بن نصر الشيزري، عبد الرحمن (1946)، كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة، نشر السيد الباز العربي، القاهرة.

الحموي، ياقوت بن عبد الله (بخط)، معجم البلدان، ج 1، دار الفكر، بيروت، ط. 1.

بنحمادة، سعيد (2007)، الماء والإنسان في الأندرس، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت، ط. 1.

كريم، فضيلة (2007)، "الحمامات" موجز تاريخ الحمامات، ترجمة يوسف حضرية، دار النشر دحلب، الجزائر.

فيلايلي، عبد العزيز (2002)، تلمسان في العهد الزياني دراسة سياسية عمرانية، اجتماعية، ثقافية، ج 1، موسم للنشر و التوزيع، الجزائر.

كرد، محمد علي (1972)، خطط الشام، ج 6، دار العلم للملائين، بيروت، ط2.

بهيوني، عبد المجيد (2008)، "الحمامات العمومية و الديمغرافية التاريخية: أية علاقة؟، الحمامات الشامية أنموذجاً" ، من الكتاب الجماعي دراسات تاريخية في العمارة والسكن ، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية، رقم 94، جامعة محمد الأول، وجدة.

بوحدبية، عبد الوهاب (2000)، الجنسيانية والاسلام ، ترجمة مقلد محمد علي ، سراس للنشر، تونس.

بوحدبية، عبد الوهاب (2001)، الإسلام و الجنس ، ترجمة و تعلق العوري ، هالة ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط2.

لعيبي، شاكر (2007)، العمارة الذكورية : فن البناء و المعايير الاجتماعية و الأخلاقية في العالم العربي ، رياض الريس للكتب والنشر ، بيروت ، ط1.

موساوي، سليمة (1999)، " حمامات مدينة تلمسان: نموذج حمام الصياغين" ، من مجلة الثقافة ، اصدار وزارة الثقافة والاتصال، الجزائر، السنة الرابعة والعشرون ، العدد. 119.

بوعزيزي، محسن. (2010)، السيميولوجيا الاجتماعية ، إصدارات مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط1.

السباعي، خلود (2006)، الجسد الأنثوي و هوية الجندر ، دار القلم للطباعة و النشر و التوزيع ، الرباط ، ط1.

وارهان، أحمد بلحاج آية (1997)، شعرية الحمامات ، دار وليلي للطباعة و النشر ، مراكش ، ط1.

Lewis, B., Ménage, V.-L, Pellait, Ch., Schacht, J. (1990), *Encyclopédie de l'Islam*, t. III, Paris, nouvelle édition, maison œuvre et la rose.

Brosselard, Ch. (1985), « Les inscriptions arabes de Tlemcen », 3<sup>ème</sup> année, n° 03, in *Revue Africaine*, années 1858-1859, Office des publications universitaires, Alger, Edition n° 1928.

Carlier, O. (2000), « les Enjeux Sociaux du Corps, le Hammam Maghrébin (19-20 siècle) lieu pérenne, menacé ou recréé », in *Annales, Histoire, Sciences sociales*, 55 année, n° 6, Nov-Déc 2000, Paris, Editions de l'Ecole des Hautes Etudes en Sciences Sociales.

Traki, Z. (1984), « Symbolique corporelle et espaces musulmans », in *Horizon maghrébin*, Tunis.